الدرس الثالث عشر :

الاستقامة

روى مسلم في صحيحه ، عن سفيان بن عبد الله الثقفي ، أنه سأل رسول الله ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك . فقال : « **قل آمنت بالله ، ثم استقم** »[1].

وفي رواية للترمذي : قلت : يا رسول الله ، حدثني بأمر أعتصم به . فقال : « **قل : ربي الله ، ثم استقم** » . قال : فما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأشار إلى لسانه ، وقال : « **هذا** »[2].

وصية شاملة :

سأل هذا الصحابي رسول الله ﷺ عن أمر جامع ، أن يقول له قولا مُغْنيًا ، ويوصيه وصيَّة شاملة ، يتخذها دستورًا لحياته ، ويلتزمها منهاجًا للعلاقة بينه وبين ربه ، وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين الناس .

وكان ﷺ قد أوتي جوامع الكلم ، يجمع في الكلمة القليلة الموجزة المعاني الكثيرة الجمَّة ، فقال له هذه الكلمة ، وأوصاه بهذه الوصية : « قل آمنت بالله ، ثم استقم » أو « قل ربي الله ، ثم استقم ».

اقتباس من القرآن :

وهذا الجواب المحمَّدي إنما اقتبسه من القرآن الكريم ، من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٨) ، وأحمد (١٥٤١٦) ، عن سفيان بن عبد الله الثقفي .

(٢) رواه أحمد (١٥٤١٩)، وقال مخرِّجوه : صحيح ، والترمذي في الزهد (٢٤١٠) ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢) ، وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٦٩٨) ، وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، والطبراني في الكبير (٦٩/٧) ، والحاكم في الرقاق (٣١٣/٤) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، عن سفيان بن عبد الله الثقفي ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٠٨) .

OBEIKAN.COM

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ (فصلت: ٣٠)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٣، ١٤).

البراءة من الأرباب الزائفة :

الأمر الأول في هذه الوصية : أن يعلن بأنَّ ربه هو الله ... ويبرأ من كل الأرباب ، الأرباب الزائفة ، التي اصْطنعها الناس في حياتهم ، صنعها الوهم والخرافة ، أو صنعها الهوى والشهوة ، أو صنعها الكذب والتضليل . . . كل الأرباب ، من البشر ، أو من الحجر ، أو من الكواكب ، أو من أي شيء في العالم العلوي أو السُّفلي ، على المؤمن أن يبرأ من هذه الأرباب ، ولا يتَّخذ غير الله ربًّا ، ولا يتَّخذ غير الله وليًّا ، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

لقد بُعِثَ رسول الله ﷺ والناس في هذه الدنيا يتخذون أربابًا كثيرة ، هذا يتخذ له ربًّا من الحلوى أو من العجوة ، فإذا جاع أكله ، وذاك يتَّخذ ربه كاهنًا من الكُهَّان ، وآخر يتخذ ربه صنمًا من الأصنام ، أو وثنًا من الأوثان ، وهكذا . . . اتخذ الناس أربابا شتَّى[1] . . . ولهذا كانت رسالة رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء والأباطرة من الأكاسرة والقياصرة ، كان يختمها بهذه الآية : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤) . مثل أولئك الذين ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١).

---

(١) قال ابن الجوزي : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا ، وجعله ثالثة الأثافي لقدره ، فإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك ، ثم روى عن أبي رجاء العطاردي قوله : كنا نعبد الحجر في الجاهلية ، فإذا وجدنا حجرًا هو أحسن منه نلقي ذاك ونأخذه ، وإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثية من تراب ، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ، ثم طفنا به . تلبيس إبليس صـ٧٥ ، طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت .

OBEIKAN.COM

التوحيد رسالة كل الأنبياء :

ليعلن الإنسان أول ما يعلن أنَّ الله ربه ، وأنَّ الله معبوده ، وأنَّ وِجْهته إلى الله ، وأنه لا يتَّخذ وليًّا من دون الله .

بهذا بُعثت الأنبياء ، وبهذا نزلت الكتب ، وبهذا قامت السماوات والأرض ، وبهذا قامت سوق الجنة والنار . .

على هذه الحقيقة قاتل الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين .

موقف موسى من فرعون :

وقف موسى عليه السلام يقول لفرعون : إنك لست الربَّ الأعلى كما تزعم للناس ، حيث قال للناس : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النازعات:٢٤) ، فقال : إن الله وحده هو ربُّ الناس ، ملك الناس ، إله الناس .

ولهذا أراد فرعون أن يقتل موسى قال : ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ (غافر:٢٦).

وشاء الله أن يدافع عن موسى رجلٌ مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، يصرخ في وجوه هؤلاء : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (غافر:٢٨).

أمن أجل هذه الكلمة ﴿ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾، وهي الحقيقة الناصعة التي ليس هناك حقيقة أنصع ولا أثبت ولا أخلد منها؟! أمن أجل هذه الحقيقة يراد بموسى أن يقتل وتزهق روحه؟!

موقف إبراهيم من النمرود :

ولقد أريد من أجل هذه الكلمة لسيدنا إبراهيم أن يُلقى في النار ، ويُحرَّق تحريقًا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة:٢٥٨)، أي إن

هذا (النمرود) يزعم أن في يده الأمر والنهي ، يأمر بقتل مَن يشاء فيميته ، ويأمر بالعفو عمَّن شاء فيحييه . . . وهناك يقول له إبراهيم : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨).

موقف المشركين من محمد ﷺ وأصحابه :

ولقد أُريد لمحمد ﷺ ولأصحابه أن يُقتَلوا ، وأن يُعذَّبوا ، وأن يُنفوا ، وأن يُخرَجوا من ديارهم بغير حق ؛ إلا أن يقولوا ربنا الله . . .

لقد أُخرجوا من ديارهم وأموالهم وأُوذوا في أنفسهم وأهليهم . . . بغير ذنب جَنَوْه ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ (الحج:٤٠).

لهذا كان على المسلم أن يقول : ﴿ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾، مهما أُوذي في نفسه ، أو أهله ، أو ماله ، أو منصبه ، أو جاهه ، أو كل أعراض الحياة ، مستمسكا بهذه العُروة الوُثقى لا انفصام لها .

« قل ربيَ الله ثمَّ استقم »

أي قل هذا ، اعتقده في نفسك ، وأعلنه على الناس ، ولكن لا بَّد من الاستقامة على مقتضى هذا القول .

ما المقصود بالاستقامة ؟

والاستقامة تعني أمرين :

الثبات على التوحيد :

الأمر الأول : الثبات على هذا القول ، وعلى التوحيد لله ، وعلى إخلاص القلب لله ، بحيث يسير الإنسان في هذا الطريق ، طريق التوحيد السَّوِيَّة ، لا عِوَج فيها ولا أَمْت ، ولا ارتداد ولا انحراف . . . ولهذا قرأ سيدنا أبو بكر : ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ (فصلت:٣٠)، فقال : لم يشركوا به شيئا . . . وذلك معنى الاستقامة .

وقرأها عمر على المنبر فقال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ (فصلت:٣٠)، أي : لم يروغوا روغان الثعالب[١].

استقاموا على أمر الله ، وعلى دين الله ، وعلى توحيد الله ، استقامة المؤمن الصريح . . . الثبات على التوحيد إلى النهاية ، إلى الموت ، ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٩).

التزام حدود الله وتنفيذ أوامره :

والأمر الثاني من معنى الاستقامة : أنه يلتزم حدود الله ، وينفذ أوامره ، ويقيم حدوده ، وينتهي عن محارمه ، فيسلك الطريق المستقيم . . . والصِّراط الذي هو كحدِّ السيف ، لا ينحرف عنه يَمنْة ولا يَسْرة ، لا يميل مع اليمينيين ، ولا ينحرف مع اليساريين .

الهداية إلى الصراط المستقيم :

إنه الصراط المستقيم الذي ندعو الله ونسأله الهداية إليه كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة ، لو اقتصر الإنسان على أداء الفرائض . . ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٦،٧) .

سلوك الطريق المستقيم الواضح دون مَيْل أو انحراف عنه :

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . . لا سبيل المنحرفين المغضوب عليهم كاليهود ، والضالين كالنصارى . فقد روى الترمذي ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنَّ اليهود مغضوبٌ عليهم ، وإنَّ النصارى ضُلاَّل »[٢].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (١٢٥/٩) .

(٢) رواه الترمذي (٢٩٥٣) وقال : حسن غريب ، وابن حبان في التاريخ (٦٢٤٦) ، وقال الأرناؤوط : حديث حسن لغيره ، والطبراني في الأوسط (٣٨١٣)، وفي الكبير (٩٨/١٧)، عن عدي بن حاتم ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٣٥٣) .

OBEIKAN.COM

فالطريق الذي يجب أن يسلكه الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والجماعة المسلمة ، والحكومة المسلمة ، هو : الطريق الإسلامي الواضح ، الذي لا يميل إلى هنا ، ولا إلى هناك ، ولا إلى هنالك . . .

التحذير من التقليد الأعمى :

فقد حذَّر النبي ﷺ ، هذه الأمة من أن تفقد شخصيتها ، وتفقد ذاتيتها ، وتسير وراء الآخرين مُقلدة التقليد الأعمى ، قال : « لتتبعنَّ سَنَنَ مَن قبلكم شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، جحر الضب على ما فيه من الضيق والالتواء والقذارة والنتانة وسوء الرائحة ، لو دخلوا مثل هذا الجحر ، لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله ، آليهود والنصارى؟! قال : « فمن؟! »[1] .

هم هؤلاء المقصودون ؛ تتَّبعونهم وتقلدونهم وتتركون طريقكم المستقيم ، وتسيرون في طريقهم الأعوج ... إذا أطالوا أظافرهم كأظافر الكلاب والقطط أطلتم أظافركم ، إذا سارت نساؤهم عاريات أو شبه عاريات ، فعلت نساؤكم مثلهنَّ ، إذا أكلوا الربا أكلتموه ، وإذا أباحو الخمر أبحتموها ! إذا ارتكبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، كانت فواحشهم شيئًا جميلا يُقتدى به .

وهكذا انحرف الناس عن الطريق المستقيم ، عن الاستقامة التي أمر الله بها رسوله وأمر بها المؤمنين .

أوامر الله لنبيه وللمؤمنين بالاستقامة :

قال الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (هود:١١٢) .

روى القشيري ، أن عبد الرحمن السلمي قال : سمعت أبا علي السري يقول : رأيت النبيَّ ﷺ فقلت : يا رسول الله ، روي عنك أنك قلت : « شيبتني هود »[2] .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) ، ومسلم في العلم (٢٦٦٩) ، كما رواه أحمد (١١٨٩٧) ، عن أبي سعيد الخدري .

(٢) رواه الترمذي (٣٢٩٧) وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم (٣٤٣/٢) ، وصححه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي ، كلاهما في التفسير ، عن ابن عباس ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٢٧) ، ونصه : « شيبتني هود والواقعة والمرسلات و ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ » .

قال : «نعم» فقلت : ما الذي شيبك ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ قال : «لا ولكن قوله : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[1](هود:١١٢،١١٣)».

وقال تعالى في سورة فصلت : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ (فصلت:٦)، رتَّب الأمر بالاستقامة على توحيد الله تعالى .

مقتضى توحيد الله والاعتراف بألوهيته ووحدانيته ، والاعتراف بربوبيته ، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه:٥٠)، ذلك يقتضي الاستقامة إليه ، الاستقامة على طريقه ، استقامة اللسان على الصدق ، واستقامة القلب على التوحيد ، واستقامة الجوارح على الطاعة ، واستقامة العمل على السنة ، على هدي محمد ﷺ.

الاستقامة الكاملة غير ممكنة :

وما أجمل هذه الكلمة : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ ، كأنها إشارة إلى أن الإنسان لا يمكن أن يستقيم الاستقامة حق الاستقامة . . . لا بد أن يُفرِّط في جَنْب الله ، وأن يبدو منه تقصير في حق الله ، فالإنسان إنسان ، مهما يحاول ومهما يجاهد . . . ولكن لم يطلب منه إلا التصميم والعزم ، وحسن الاتجاه إلى الله وإلى طريق الله .

فإذا فرط منه في الطريق شيء ، فإنَّ الله أهل التقوى وأهل المغفرة ، قال ﷺ : «استقيموا ولن تحصوا»[2]، أي لن تستطيعوا أن تُدققوا في كل شيء ، وتؤدوا كل عمل كما هو مطلوب منكم ، فـ«سدِّدوا وأبشروا»[3]، و«سدِّدوا وقاربوا»[4].

---

(١) تفسير الثعالبي (٢/٢٢٠) .

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٧٨) ، وقال مُخرِّجوه : حديث صحيح ، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح ، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٢٧٧) ، والطيالسي (٩٩٦) ، والدارمي في الطهارة (٦٥٥) ، والطبراني في الصغير (٨) ، والكبير (١٠١/٢) ، والبيهقي في الكبرى كتاب الطهارة (٨٢/١) ، عن ثوبان ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٤) .

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٧) ، عن عائشة .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤) ، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٨) ، كما رواه أحمد (٢٤٩٤٠) ، عن عائشة .

الفرق بين التسديد والمقاربة :

التسديد معناه : الإصابة في الأقوال والأعمال ، والمقاصد كلها . . . أن يصيب الإنسان الهدف ولا يخطئه . . .

والمقاربة : أن تبلغ قريبًا من هدفك ، ومن غرضك . . .

فيقول عليه الصلاة والسلام : «سددوا» ، أي : حاولوا الإصابة والتسديد فيما تريدون ، و«قاربوا» إن لم تستطيعوا التسديد ، فقاربوا . . . أي : كونوا قريبين من الإصابة . . . ولكن بشرط أن تكون مُصمِّمًا على بلوغه ، وأن تكون وِجْهتك إليه ، فلا تكون مُشرِّقًا وهدفك مُغرِّب ، بل ينبغي أن تكون سليم الاتجاه ، صحيح الوِجْهة أولاً . . . وإن فَرَطَ منك شيء من الخطأ ومن الزلل فإنَّ الله عز وجل ، يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها .

دور اللسان في الاستقامة :

يقول ﷺ : «لا يستقيم لسان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه ، حتى يستقيم لسانه»[1].

ذلك أن اللسان ترجمان القلب، والمُعبِّر عنه، والمرآة لما يحتويه باطن الإنسان، ولهذا ورد أن الأعضاء إذا أصبحت قالت للِّسان : «اتق الله فينا ، فإذا استقمت استقمنا ، وإذا اعوججتَ اعوججنا»[2].

فإذا رأينا إنسانًا مُعْوجَّ اللسان ، مُنحرف القول ، فهذا دليل على عِوَج في قلبه ، وعلى انحراف في قصده .

---

(١) رواه أحمد (١٣٠٤٨)، وقال مخرِّجوه : إسناده ضعيف ، تفرد به علي بن مسعدة ، وقال الهيثمي : رواه أحمد وفيه علي بن مسعدة وثقه يحيى بن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره (١/٢٢٠) ، وقال الحافظ في التقريب : صدوق له أوهام انظر : المنتقى (١٧٢٦) ، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٤١) .

(٢) رواه أحمد (١١٩٠٨) ، وقال مخرِّجوه : إسناده حسن ، والترمذي في الزهد (٢٤٠٧) ، والطيالسي (٢٢٠٩)، وأبو يعلى (١١٨٥)، والبيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (٤٩٤٥)، عن أبي سعيد الخدري ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٧١).

OBEIKAN.COM

الاستقامة في الدنيا :

إننا ـ والله ـ إذا استقمنا أفلحنا في الدنيا والآخرة .

الاستقامة هي سبيل النجاح ، وسبيل الفلاح . . . في الحياة الأولى ، وفي الحياة الباقية .

يقول الله تعالى في شأن هذه الحياة : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ (الجن:١٦)، أي : وسَّعنا عليهم أرزاقهم ، وأكلوا من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق:٢،٣) ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأعراف:٩٦).

الاستقامة على أمر الله وشكر نعمته سبيلٌ إلى حفظها ، وإلى الاستزادة منها ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم:٧).

إنَّ الله حينما أهبط آدم وحواء إلى الأرض علَّمهما هذا المبدأ ، ووضع نُصب أعينهما هذا القانون: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه:١٢٣-١٢٦).

الاستقامة سبيل النجاح والفلاح :

الاستقامةُ سبيل السعادة ، وسبيل الفلاح للفرد . . . وللأسرة . . . وللمجتمع كله .

إذا قال الفرد : (ربي الله) ، ثم استقام على هذا وثبت عليه ، فهو سعيد وإن شقي الناس ، مُفلح وإن خاب الناس ، مطمئن وإن اضطرب الناس ، آمن وإن خاف الناس ، ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ (الجن:١٣)، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (طه:١١٢)، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨).

السعادة في الإيمان وفي الاستقامة :

لقد أغضب عمر إحدى زوجاته فقال لها مرة : لأشقينَّك يا أم كلثوم . (بنت على بن أبي طالب وكانت زوجة لعمر) فقالت له : لا تستطيع يا أمير المؤمنين ، أن تشقيني ، لأن سعادتى في إيماني ، وإيماني في قلبي ، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي .

هذا في الدنيا . . .

نتيجة الاستقامة في الآخرة :

وأما في الآخرة ، فجنة عرضها السماوات والأرض ، وملائكة تتنزل ببشارة الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ (فصلت: ٣٠).

الإنسان في هذه الحالة ، قادم على دار غير الدار ، وعلى حياة غير الحياة ، والغريب يستوحش ، ولكن الملائكة تُؤْنس وحشتهم ، فتقول لهم حين تتوفاهم طيبين : ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ (فصلت: ٣٠)، أي : لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه ، ولا تحزنوا لما خلَّفتم وراءَكم من مال وأهل وولد . . . فإن الله وليّكم في هذا كله . . . ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ـ كنا نعلِّمكم ، نؤيِّدكم ونسدِّدكم وننصركم على أعدائكم ، ونحفظكم بأمر الله ـ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (فصلت: ٣٠،٣١) ، نُؤْنسكم عند الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور ، وعند البعث والنشور ، وعند المرور على الصراط ، ونهديكم إلى الجنة ، ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (يونس: ٩)، وندخل عليكم محيين مسلِّمين : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤).

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣١،٣٢) [1].

* * *

(١) انظر : خطب الشيخ القرضاوي خطبة بعنوان (الاستقامة وأثرها في حياة المسلم) (٦٩/٦) طبعة مكتبة وهبة ، القاهرة .